عالم الطفولة

Mein Kind, wir waren Kinder.

H. Heine

عادت طيارات الأطفال إلى ملكها الجوى بعد ست سنوات من حرب البر والبحر والجو. وها هى ذى ترتفع فى كل ساعات النهار من شاطئ البحر الدانى إلى علو منزلى . وقد تعلو عنه وعن أسطح المنازل المجاورة ، يتبعها ناظرى ، ويحلق معها شعورى ، حتى لأنسى الحاضر والماضى القريب وأعود بالذكرى إلى سنتى العاشرة وما قبلها أو بعدها بقليل ، وأنا ممسك بالعنان الرفيع للطيارة المحلقة كالجواد الطائر . أتركه لها رويداً حتى لا تنطح فجأة برأسها وتختنق بذيلها إذا التف حول رقبتها . ولكنها تطلب المزيد من الحرية والارتفاع ، وأنا أرخى لها العنان ما بقى معى خيط . ثم لا يبقى من الخيط إلا طرف طليق ألفه حول ذراعى كآخر قيد يحتفظ لى بطيارتى فى كبد السماء . هو صك الألفة بين صديقتى الطائرة ، وبين قلبى الوامق ونظرى المعجب .

وقد أرسل لصديقتى الهوائية رسالة الهوى ، وعربون المحبة ، خاتماً ربط به منديل يحمله الهواء منزلقاً على طول الخيط ، حتى يوصله إلى قلب طيارتى ، حيث تجتمع الخيوط الثلاثة التى تزنها فى الهواء ، وتتحكم بحياتها فى الفضاء .

لم تكن الطيارة فى طيرانها إلا الحلقة الأخيرة من سلسلة نشاط وحركة تبدأ صباحاً بزيارة حانوت العطار لشراء الخيط — أو النير كما كان يسمى — والورق الملون ، ومسحوق الرسراس الذى نصنع منه صمغاً خاصا ، ثم بالبحث عن عصا من البوص الجيد عند صانع جوز التمباك .

فاذا عدت إلى المنزل ، جلست فى ركن من « الفسحة » خال من الأثاث ، ثم بدأت فى تشطير البوصة طولاً إلى ثلاث عصى ، أضعها متعارضة وأربطها من وسطها فتصبح أقطاراً لشكل سداسى متساوى الأضلاع . وأصل بين أطرافها بخيط يحول المسدس الرياضى إلى مسدس واقعى ، هو هيكل الطيارة .

وأخلط مسحوق الرسراس بالماء لأكون عجينة صفراء لزجة ، وأقص أوراق الملونة إلى مثلثات ألصقها بالهيكل وأنا ألاحظ المقابلة بين ألوان هذه المثلثات ، وهى محدودة لا تتعدى الأخضر والأصفر والوردى والأحمر .

وأدور قصًا فيما بقى من الورق أحوله شرائط أو غدائر ، أعقصها حول طول من الخيط فتكون ذيل الطيارة ، وهو على شكل « واى » طويل الساق . وأصل طرفى الواى بضلع من أضلاع الهيكل .

ثم أنتقل من هذه الهندسة المسطحة إلى هندسة فراغية ، حين أنشئ هرما خياليًا متساوى الأضلاع ، بواسطة ثلاثة خيوط ، أحدها يربط فى مركز الطيارة ، ويربط الآخران بطرفى الضلع المقابل لضلع الذيل . وهـذا الهرم الخيالى هو « الميزان » الذى يتوقف عليه ثبات الطيارة فى الجو من جهة ، ومقدرتها من جهة أخرى على تلقى تيار الهواء الأفقى بانحراف يكون من أثره أن تأخـذ فى الارتفاع . فهو أهم عمل هندسى ميكانيكى فى وضع طيارتى ، وآخرها .

تم إذاً إعداد الطيـارة فى هدوء وعلى انفراد ، لا يقطع علىّ عملى إلا أولئك الآدميون فى إصرارهم على الحاجات المادية لطفلهم ، فهم يدعونه إلى الغداء بالرفق أول الأمر ، وبالعنف فى آخره .

وأى طعم للأكل فى ذلك اليوم المجيد ، ولم يعد الطفل الصناع من سكان هـذا الـكوكب الأرضى ، إنما هو روح حائم حول طيارته ، متعلق بتاجها الملون وغدائرها التى سوف يعبث النسـيم بها فيثير منها خشخشة ناعمة تخفت رويداً كلما ارتفعت الطيارة فى الجو .

وأنزل إلى الأرض الفضـاء خلف المنزل لأشرع فى التحليق ، فروحى هو الطائر مع طيارتى . أما ذلك الجسم الصغير الباقى على الأرض فان هو إلا ثقل فى آخر الخيط ، «أنجر» يربط السفينة المحلقة فى أعلى عليين بقرار هذا البحر الشفاف .

قد يكون الهواء ريحاً على سطح الأرض ، فلا أحتاج إلى أكثر من رفع الطيارة فوق رأسى ممسكاً بميزانها ، فيحملها الريح عنى . وقد يكون نسيما ناعساً فأضع الطيـارة بحساب على الأرض ، وأبتعد عنها تاركاً لها طولا كافياً من الخيط ، ثم أجرى وأنا أسحبها فترتفع إلى درجة كافية لتلقى رياح الطبقات العليا من الجو .

الطبقات العليا من جو الطفولة ، هى حيث ترقى الحمائم واليمام ، وإلى ما فوق

ذلك حيث يرى الإوز العراقى — كما كنا نعرفه، وهو بط الصيادين — سائراً سيره فى أقواس وخطوط منكسرة ليتم رحلة الشتاء او الصيف. الطبقات العليا التى تهبط منها أغاريد الكروان فى الليالى ذات الكواكب والنجوم الزاهرة.

أطباق الجو العليا يهبط منها دهنش وصاحبته الجنية يحملان الأميرة بدور بنت الملك الغيور إلى قبو قمر الزمان ابن الملك شهرمان.

ما برحت إلى اليوم — وقد طويت ورائى مرحلة العمر الوسطى — أسمع حفيف أجنحة دهنش والجنية، بالوضوح الذى كنت أسمع به حفيف طيارتى ذات الألوان الزاهية، وخشخشة ذيلها تتطاير غدائره فى أشعة الشمس كألسنة ملتهبة.

فكل شىء فى عالم الطفولة وحدة كاملة، صورة من وحدة الوجود، لافرق بين حقائقه والأحلام.

هو من عالم الطفولة ذلك الصندوق الخشبى الملون، يحمله مارد زرى الهيئة، أغبر الملامح، ينفخ فى صوره فنجرى إلى صندوقه وقد وضعه عن ظهره أمام المنزل، ودعانا إلى الجلوس على دكة متهالكة أمام عيون بلورية فى جانب من الصندوق. ثم يغطينا بخرقة بالية، لا يمكن إلا أن تكون قطعة من بساط سليمان. فما إن نجوس بأبصارنا خلال العيون البلورية حتى ننتقل إلى عالم غير عالمنا، تتحرك فى عرصاته صور عزيزة ويونس وأبى زيد الهلالى والزير سالم وابن ذى يزن، وغيرهم من الأبطال الذين لايتطرق إلينا الشك لحظة فى وجودهم. وينتهى العرض ببضع بكرات مشدودة إلى خيط، يديرها الساحر بيده فتجرى وسط ميدان فسيح «بكركبة» كالرعد، وتمثل آخر العجائب، عجيبة العصور الحديثة: الوابور. رحلة بدأناها فوق بساط الريح وختمناها على متن البخار.

من عالم الطفولة قصص الجدة والخالة إلى جانب المدفأة فى ليالى الشتاء. رأيت فيها الأميرات والصعاليك، والأبطال والسلاطين فى أسمالهم وحللهم، بين جدران قصورهم، أو فى مسالك تيههم الطويل. رأيت الجن الطائر فى سماواته، والجن المختفى فى كهوفه يشق جوانب الجبال وسطح الأرض، كما يشق السابح صفحة الماء. سمعت أنين العاشقين فرق السحر بينهم فراقاً فيه قسوة الجحيم وعذاب الطنطال. ولا أنسى من بين هؤلاء اثنين أحالهما المجوسى زوجاً من الطيور، وحبسهما فى قفصين متواجهين لا يتلامسان. يرنو كلاهما إلى الآخر فى حسرة من وراء قضبان سجن مزدوج: سجن القفص، وحبس الجسم المريش الغريب.

أحرار هم الأطفال . . . والمتصوفون . فاذا كان المتصوف لا يملك إطلاق روحه الحبيس فى مادة الجسد إلا بجهد العرى والجوع والورع والتأمل ، فان الطفل يتنقل بين عالمه المادى والروحى بسهولة المارد يخترق الجدار ، ويرتفع عن مادته فى يسر الطيارة الورق يحملها النسيم إلى علٍ . وما الصلة بين الطفل فى جسده وفى روحه بأكثر من الخيط الرفيع يصل بين يده الصغيرة وألعوبته الجميلة فى أطباق الجو .

يرى الطفل بروحه أكثر مما ينظر بعينيه ، فيضفى الجمال على كل الأشياء وكل المخلوقات . فما هى تلك الطيارة سوى أوراق ملونة رخيصة ألصقت بصمغ قذر إلى قطع من البوص والخيط ! وهذه الأناسى السوقية فى الموالد والأعياد تتسربل فى أقمشة قذرة مهلهلة ، وتصطبغ بأدهان فاقعة ، زينتها الصفيح وأزرار الصدف وشعر الدواب : ملك الزمان يمتطى جواده الأشهب — خلف حصان جرار ! وأبطال البادية يداورون ويحاورون ، ضاربين بسيوفهم البتارة دروعاً كأنها قطع من الليل البهيم — أو هى قعر صفيحة وقضبان خردة سواها السمكرى فى رمضان ؟

وهذا اللاعب الاسكندرانى فى سراويله السوداء وقميصه المزركش ومنطقته الكشمير ، يرفع على طرف قدمه العارية مشعلا ، ويحجل بقدمه الاخرى ، ثم هو يركل المشعل إلى أعلى ليتلقاه على أرنبة أنفه ، أو فوق يافوخه . وحوله رفقاؤه يقرعون طبولهم المغلولة إلى أعناقهم .

صفيح فى صفيح ، وورق ملون ، وطراطير حمراء وصفراء ، وقطع من الزجاج والمرايا ، وأسمال قذرة تتفرك ، وأقدام حافية ، ورجال موشومون .

صفيح فوانيس رمضان ذات الزجاج الملون ، ملايات بيضاء تغطى قضباناً حديدية ، مصابيح الذكر الكبيرة تلتف حولها العامة فى ليالى الحضرة . وسكر مغلى رصع بقطع من الملبس والنقل هذا « العلى لوز » .

وما هو الا راجوز البلدى ؟ خشب ملونة مزوقة ، رسمت فى أعلاها وجوه ادميين أو قردة ، وألبست خرقاً جمعت من قمامة . يحركها مواطن عزبة الصفيح وهو مختبىء فى جوسق من الخيش المرصع بأنصاف الملاليم ، وعقود البكر والودع . يتكلم بصوت الببغاء ، فتغلبه حشرجة شعب قرحها الحشيش والتمباك .

والأراجوز من بنى عمومة عرائس المولد بيشرتها السكرية وغلالاتها ذات

الورق المفضض، وشعرها الفاحم تعلوه المراوح تتلألأ فى ضوء المصابيح الغازية منتظمة على مدرجاتها الخشبية فى صفوف « البالـّو » أو طوابير الاستعراض، تحف بها الخيل والغزلان والسباع والهررة حمراء ووردية وبيضاء.

أسرة واحدة تلك الدمى من حلوى وخشب وجص وقش، وصور صندوق الدنيا، ومُلاعب القرود وأتانه، والحاوى وثعابينه، والاسكندرانى ونقاريته، وضارب الدف، والموقع على الناى والأرغول.

أسرة واحدة وعالم واحد، الموالد وحضرة الأولياء، وأسراب وَحَوِى، وفرسان الأراجيح، وبائعات على لوز، تجسدت فيها قصص الشاعر بربابته، والشاعر بغير ربابته فى أحياء قاهرة المعز والصالح وأتابك.

أسرة طفولتنا ودنيا خيالنا. ظلال ملونة تلقيها أحلامنا فوق صفحة يقظتنا البيضاء. فاذا أطفأ المعلم مصباحه تبددت الخيالات، وفركنا أعيننا لنصحو الصحوة الأخيرة.

صحوتها ذات يوم أذكره جيداً، عند واحدة من قريباتنا، بمحضر نسوة تلقيننى كما يتلقى كهنة التبت عظيمهم الطفل دلاى لاما.

فقد خرج رجل يضع فى كفى فنجاناً يحتوى على قليل من القهوة، وينضح جبينى بالزيت، ويغطى رأسى بملاءة، وهو يأمرنى أن أديم النظر فى قاع الفنجان. عرفت أن الرجل فاتح « المندل » ولا يفتح إلا بين يدى صبى دون البلوغ. وكم سمعت بالمندل وكان سحراً من أسحار طفولتى، وأملا بعيد المنال من آمالى. متى يفتح المندل لعينى فأرى الخدام فى قاع الفنجان، وآمرها فتكنس وترش، ثم يجىء السلطان ووزراؤه فأسألهم أين اختفى فلان بن فلانة، ومن أى طريق نتعقب حرامى الحلة والحلى.

جعل الرجل يتلو تعاويذه على رأسى، لغة تلقيتها عن دهنش وفصيلته، فيها وسوسة حلى بغلة العشر، وفحيح ذى العيون المشقوقة بالطول، والرجل المسلوخة. أنظر وأدقق النظر لعلى أبصر ما توقعتـه طول طفولتى، على أن صفحة القهوة لم تتحول عن السواد. ولـكن . . . ! ما هذا البصيص فى قاع الفنجان؟ أيتسع فأرى الساحة والخدام، والسلاطين والأعوان؟

واأسفا! لم يكن سوى انعكاس ضوء خافت نفذ من فرجة فى الغطاء الذى أسجاه فاتح المندل فوق رأسى وفوق ذراعى الممدودة بالفنجان.

تعب الساحر وهو يسألنى : « هل حضروا » وأنا أجيب بالنفى يقيناً أخفق الرجل ، أو أخفق الصبى .

فكشف الغطاء عنى واعتذر للسيدات ملقياً علىَّ تبعة خيبته :

— الولد أدرك !

احمرت وجنتا الصبى المسكين خجلاً ، إذ فهم ما يعنيه الساحر السوقى بهذه الكلمة العامية .

ولكنى أفهمها اليوم بمعناها الفصيح . فقد بلغ الصبى مرتبة الادراك . وكان المندل الذى لم يفتح عليه هو آخر باب من أبواب عالم اغلق وراءه ، هو عالم الطفولة وفردوس أحلامها .

***

ففى هذه اللحظات التى اقضيها ساهماً ساكناً أمام البحر ، أجرى يدى على سبحه الذكريات ، وأمضى ببصرى عبر هذا البحر إلى بحار وأراضين بعيدة ، عرفت أنى رحلت أجمل رحلاتى ، وزودت فيها باقدس زادى ، حين اعترضت أفقى طيارة حمراء صفراء وردية حضراء ، يطيرها صنوٌ لى ، تفرق بينى وبينه خطوات معدودات فى الفضاء ، وتفصلنى عنه أعوام وأعوام لا أود لها عدًّا .

Mein Kind, wir waren Kinder,
Zwei Kinder, klein und froh (١).

حسين فوزى

---

(١) هذا الشعر من قصيدة للشاعر الألمانى « هنريش هينى » يقول فيه لأخته « يا أخية ! لقد نعمنا بالصبا ، حين كنا طفلين مرحين » .